[٣٥٨ظ]

/ سورة سبأ[1]

مكّيّة، وقيل: إلّا قوله تعالى:
﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيةَ [سبأ، ٦/٣٤]،[2] وهي أربع وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له تعالى خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، بالإيجاد والإعدام، والإحياءِ والإماتة؛ جميعُ ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، فكأنّه قيل: له جميع المخلوقات، كما مرّ في آية الكرسي.[3] ووصفُه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليقُ "الحمد" المعرَّف بـ"لام" الحقيقة بالاسم الجليل مِن اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بُيّن في فاتحة الفاتحة ببيان تفرّدِه تعالى واستقلالِه بما يوجب ذلك، وكونِ كلِّ ما سواه مِن الموجودات التي مِن جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حدّ ذاتها استحقاق الوجود فضلًا عمّا عداه مِن صفاتها؛ بل كلّ ذلك نِعم فائضة عليها مِن جهته عزّ وجلّ،[4] فما هذا شأنه فهو بمَعزِل مِن استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثرَ بيان اختصاص الدنيوي به، على أنّ الجارّ متعلِّق إمّا بنفس الحمد،

---

١ س: السبأ.
٢ ط س - وقيل: إلّا قوله تعالى: ﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيةَ [سبأ، ٦/٣٤].
٣ البقرة، ٢/٢٥٥.
٤ س: تعالى.

أو بما تعلّق به الخبر مِن الاستقرار. وإطلاقُه عن ذِكر ما يُشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذِكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفي فيما سبق بذِكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذِكر كون الحمد أيضًا فيها؛ بل ليعمّ النعم الأخرويّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ[1] ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر، ٣٩/٧٤]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية [فاطر، ٣٥/٣٥]، وما يكون ذريعةً إلى نَيلها مِن النعم الدنيويّة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف، ٧/٤٣]، أي: لِما جزاؤه هذا مِن الإيمان والعمل الصالح. والفرق بين الحمدَين مع كون نعمتَي الدنيا والآخرة بطريق التفضّل أنّ الأوّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر: «أنّهم يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النفَس».[2]

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكَم أمور الدين والدنيا ودبّرها حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء / ومكنوناتها. [٣٥٩و]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ تفصيل لبعض ما يُحيط به علمه مِن الأمور التي نِيطت بها[3] مصالحهم الدنيويّة والدينيّة، أي: يعلم ما يدخل فيها مِن الغَيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها. وقُرئ: "وَمَا نُنَزِّلُ"[4] بالتشديد و"نون" العظَمة.[5] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخِرة والأدخِنة. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ للحامدين على ما ذُكر مِن نِعمه، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرّطين في ذلك بلطفه وكرمه.

---

١ م ط س - ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١/١٧١. وهو في **صحيح مسلم**، ٤/٢١٨٠ (٢٧٣٥)، بلفظ: "كما تُلهمون".

٣ س: به.

٤ ط: وما يُنَزّل؛ س: وما تُنَزّل.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسَهم أو معاصريهم فقط، كما أرادوا بنفي إتيانها نفيَ وجودِها بالكلّيّة، لا عدمَ حضورها مع تحقّقها في نفس الأمر. وإنّما عبّروا عنه بذلك لأنّهم كانوا يوعَدُون بإتيانها، ولأنّ وجود الأمور الزمانيّة المستقبَلة -لا سيّما أجزاء الزمان- لا يكون إلّا بالإتيان والحضور.

وقيل: هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهُزء والسخريّة كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس، ١٠/٤٨].

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِما نفَوه، على معنى: ليس الأمر إلّا إتيانَها. وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيد له على أتمّ الوجوه وأكملِها. وقُرئ: "لَيَأْتِيَنَّكُمْ"،[1] على تأويل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ باليوم أو الوقت.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾... إلخ إمداد للتأكيد، وتسديدٌ له إثرَ تسديد، وكسرٌ لسَورة نكيرهم واستبعادِهم، فإنّ تعقيب القسَم بجلائل نعوت المُقسَم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسَم عليه، وقوّةِ ثباته، وصحّته لِما أنّ ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر. ولا ريبَ في أنّ المستشهَد به كلّما كان أجلَّ وأعلى كانت الشهادة آكدَ وأقوى، والمستشهَدُ عليه أحقَّ بالثبوت وأولى، لا سيّما إذا خُصّ بالذِّكر مِن النُّعوت / ما له تعلّق خاصّ بالمقسَم عليه كما نحن [٣٥٩ظ] فيه، فإنّ وصفه بـ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي أشهر أفراده وأدخلُها في الخفاء هو المقسَم عليه تنبيهٌ لهم على علّة الحكم، وكونِه ممّا لا يحوم حوله شائبةُ ريبٍ ما.

وفائدة الأمر بهذه المرتبة مِن اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلًا، فإنّهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وَصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنّما لم يصدّقوه مكابرةً.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

وقُرئ: "عَلَّامِ الْغَيبِ"،[١] و"عَالِمُ الْغَيبِ"،[٢] و"عَالِمُ الْغُيُوبِ" بالرفع[٣] على المدح.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يبعُد. وقُرئ بكسر "الزاء".[٤] ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مِقدارُ أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٌ فيهما، ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن مِثقال ذرّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أي: منه، ورفعُهما على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ. والجملة مؤكِّدة لنفي العُزُوب.

وقُرئ: "وَلَا أَصْغَرَ" "وَلَا أَكْبَرَ" بفتح "الراء"[٥] على نفي الجنس. ولا يجوز أن يعطف المرفوع على ﴿مِثْقَالُ﴾، ولا المفتوحُ على ﴿ذَرَّةٍ﴾ بأنّه فتحٌ في حيّز الجرّ لامتناع الصرف، لِما أنّ الاستثناء يمنعه، إلّا أن يُجعل الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ للغيب، ويُجعل المثبَت في اللوح خارجًا عنه لبروزه للمطالعين له، فيكون المعنى: لا ينفصل عن الغيب شيء إلّا مسطورًا في اللوح.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علّة لقوله تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾،[٦] وبيان لِما يقتضي إتيانها. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول مِن حيث اتّصافُه بما في حيّز الصِّلة، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لِما فرَط منهم مِن بعض فَرَطات / قلّما يخلو عنها البشر، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه. [٣٦٠و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقَدْح فيها وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين كي يفوتونا. وقُرئ: "مُعَجِّزِينَ"،[٧] أي: مثبِّطين عن الإيمان مَن أرادَه.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٦٨.

٤ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وقتادة والحسين عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

٦ في الآية السابقة.

٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ آنفًا. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ للبيان. قال قتادة رضي الله عنه: «"الرِّجز" سوء العذاب».[١]

وقوله تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾، أي: أولئك الساعون لهم عذابٌ مِن جِنس سوء العذابِ شديدُ الإيلام. وقُرئ: "أَلِيمٍ" بالجرّ[٢] صفةً لـ﴿رِجْزٍ﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: يعلم أولو[٣] العلم مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن شايعهم مِن علماء الأمّة، أو مَن آمَن مِن علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابِهما رضي الله تعالى[٤] عنهم ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿يَرَى﴾، والمفعول الأوّل هو الموصول الثاني، وهو ضمير الفصل. وقُرئ بالرفع[٥] على الابتداء والخبر، والجملة هو المفعول الثاني لـ﴿يَرَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾... إلخ مستأنَف مَسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل: منصوب عطفًا على ﴿يَجْزِيَ﴾،[٦] أي: ولِيعلمَ أولو[٧] العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنّه الحقّ حسبما علموه الآن برهانًا، ويحتجّوا به على المكذّبين. وقد جُوِّز أن يراد بـ"أولي العلم" مَن لم يؤمن مِن الأحبار، أي: ليعلموا يومئذ / أنّه هو الحقّ، فيزدادوا حسرةً وغمًّا. [٣٦٠ظ]

﴿وَيَهْدِى﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحَقَّ﴾ عطْفَ الفعل على الاسم؛ لأنّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك، ٦٧/١٩]، أي: وقابضاتٍ، كأنّه قيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ١٩/٢١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٦٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٣ م: أولوا.

٤ س - تعالى.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

٦ سبأ، ٣٤/٤.

٧ م: أولوا.

ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الحقَّ وهاديًا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيد والتدرُّع بلباس التقوى.

وقيل: مستأنَف.[1] وقيل: حال مِن ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قول مَن قال:

نجوتُ وَأَرْهَنُهم[2] مالِكًا[3]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم كفّار قريش، قالوا مخاطِبًا بعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما قصدوا بالتنكير الطَّنْزَ[4] والسخرية، قاتلَهم الله تعالى.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يحدّثكم بعَجَبٍ عُجابٍ. وقُرئ: "يُنْبِئُكُمْ"[5] مِن "الإنباء". ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: إذا مُتُّم ومُزِّقَت أجسادكم كلَّ تمزيق، وفُرِّقَت كلَّ تفريق بحيث صِرتم ترابًا ورُفاتًا؛ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: مستقرّون فيه. عُدِل إليه عن الجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث -مثل: تُبعَثون، أو تُخلقون خلقًا جديدًا- للإشباع في الاستبعاد والتعجيب، وكذلك تقديم الظرف، والعاملُ فيه ما دلَّ عليه المذكور لا نفسُه، لِما أنّ ما بعد "إنَّ" لا يعمل فيما قبلها. و﴿جَدِيدٍ﴾ "فَعيل" بمعنى "فاعل"، مِن "جَدَّ" فهو "جَديد"، و"قَلّ" فهو "قَليل". وقيل: بمعنى "مفعول"، مِن "جَدَّ النَّسّاجُ الثوبَ" إذا قطَعَه، ثمّ شاع.

---

١ السياق: ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ عطفٌ... وقيل: مستأنَف...

٢ هو في م "وَأَرْهَنُهم" بضمّ "النون". وفي لسان العرب لابن منظور، «رهن»: «قال ثعلَب: الرواة كلّهم على "أرهنتُهم" إلّا الأصمعي، فإنّه رواه "وَأرهَنَهم مالِكًا" على أنّه عطف بفعل مستقبَل على فعل ماض».

٣ صدره:

فلمّا خشيت أظافيرهم

لعبد الله بن همّام السَّلولي في الصحاح للجوهري، «رهن». ولهمّام بن مرّة في لسان العرب لابن منظور، «رهن».

٤ الطَّنْزُ: السُّخرية. الصحاح للجوهري، «طنز».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما قاله ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. والاستدلال بهذا الترديد على أنّ بين الصدق والكذب واسطةً هو ما لا يكون مِن الإخبار عن بصيرةٍ بيّنُ الفساد، لظهور كون الافتراء أخصَّ مِن الكذب.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ جواب مِن جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالإضراب عن شِقَّيه، وإبطالِهما، وإثباتِ قسم ثالث كاشفٍ عن حقيقة الحال، ناعٍ عليهم سوءَ حالهم، وابتلاءِهم بما قالوا في حقّه عليه السلام، كأنّه قيل: ليس الأمر كما زعموا؛ بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدّي إليه ذلك / مِن العذاب، ولذلك يقولون ما يقولون. [٣٦١و]

وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبِعه للمسارعة إلى بيان ما يَسوءهم ويَفُتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتّبه عليه، كأنّه يُسابقه فيَسبقه. ووصفُ الضلال بالبُعد الذي هو وصف الضالّ للمبالغة. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتنبيه بما في حيّز الصِّلة على أنّ علّةَ ما ارتكبوه واجترءوا عليه مِن الشناعة الفظيعة كفرُهم بالآخرة وما فيها مِن فنون العقاب، ولولاه لَما فعلوا ذلك خوفًا مِن غائلته.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مَسوق لتهويل ما اجترءوا عليه مِن تكذيب آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقّه عليه السلام، وأنّه مِن العظائم الموجِبة لنزول أشدّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب مِن غير رَيثٍ وتأخير. و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾... إلخ بيان لِما ينبئ عنه ذِكر إحاطتهما بهم مِن المحذور المتوقَّع مِن جهتهما. وفيه تنبيه على أنّه لم يبقَ مِن أسباب وقوعه إلّا تعلّقُ المشيئة به، أي: أَفَعلوا ما فعلوا مِن المنكَر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم مِن جميع جوانبهم بحيث لا مفرَّ لَهم عنه ولا محيصَ؟ إن نَشَأْ جَزْيًا على موجَب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون، ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة، لاستيجابهم[1] ذلك بما ارتكبوه مِن الجرائم.

وقيل: هو تذكير بما يعاينون ممّا يدلّ على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحةً لاستحالتهم البعثَ حتّى جعلوه افتراء وهزؤًا وتهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم مِن السماء والأرض، ولم يتفكّروا أهُم أشدّ خلقًا أم هي؟ وإن نشأ نَخسف بهم الأرض، أو نسقط عليهم كسفًا، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البيّنات، فتأمّل، وكُن على الحقِّ المُبين.

وقُرئ: "يَخْسِفْ"، و"يُسْقِطْ" بـ"الياء"،[2] لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾،[3] و"كِسْفًا" بسكون "السين".[4]

[٣٦١ظ] / ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن السماء والأرض مِن حيث إحاطتهما بالناظر مِن جميع الجوانب، أو فيما تُلي مِن الوحي الناطق بما ذكر ﴿لَآيَةً﴾ واضحةً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ شأنه الإنابةُ إلى ربّه، فإنّه إذا تأمّل فيهما أو في الوحي المذكور ينزَجر عن تعاطي القبائح، وينيب إليه تعالى.

وفيه حثّ بليغ على التوبة والإنابة، وقد أُكِّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه لِحُسن إنابته وصحّةِ توبته فضلًا على سائر الأنبياء عليهم السلام، أي: نوعًا مِن الفضل، وهو ما ذُكِر بَعدُ، فإنّه معجزة خاصّة به عليه السلام، أو على سائر الناس، فيندرج فيه النبوّة والكتاب والملك والصوت الحسن،

---

[1] س: لاستيحابهم.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

[3] في الآية السابقة.

[4] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

فتنكيره للتفخيم. و﴿مِنَّا﴾ لتأكيد فخامته الذاتيّة بفخامته الإضافيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ[1] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف، ٦٥/١٨]. وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا وردها يتمكّن عندها فضلَ تمكّن.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ مِن "التأويب"، أي: رجّعي معه التسبيحَ، أو النَّوحةَ على الذنْب، وذلك إمّا بأن يخلقَ الله تعالى فيها صوتًا مثلَ صوته، كما خلق الكلام في الشجرة، أو بأن يتمثّل له ذلك. وقُرئ: "أُوبِي"[2] مِن "الأَوْب"، أي: ارجِعي معه في التسبيح كلّما رجَع فيه.

وكان كلّما سبّح عليه السلام يُسمَع مِن الجبال ما يُسمَع مِن المسبِّح معجزةً له عليه السلام. وقيل: كان ينوح على ذنْبه بتَرجيعٍ وتَحزين، وكانت الجبالُ تُسعِده على نَوحه بأصدائها، والطيرُ بأصواتها.

وهو بدل مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار "قلنا"، أو مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار "قولَنا".

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿فَضْلًا﴾، / بمعنى: وسخّرنا له الطير؛ لأنّ [٣٦٢و]
إيتاءها إيّاه عليه السلام تسخيرُها له، فلا حاجةَ إلى إضماره، كما نُقل عن الكسائي، ولا إلى تقدير مضافٍ، أي: تسبيحَ الطير، كما نقل عنه في روايةٍ.[3] وقيل: عطفًا على محلّ "الجبال"،[4] وفيه مِن التكلّف لفظًا ومعنى ما لا يخفى. وقُرئ بالرفع[5] عطفًا على لفظها تشبيهًا للحركة البنائيّة العارضة بالحركة الإعرابيّة. وقد جُوِّز انتصابه على أنّه مفعول معه، والأوّل هو الوجه.

وفي تنزيل الجبال والطير منزلةَ العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعرِ بأنّه ما مِن حيَوان وجماد وصامت وناطق إلّا وهو منقاد لمشيئته

---

١ م ط س: وآتيناه.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ انظر: التبيان لأبي البقاء، ١٠٦٤/٢.

٤ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٨١/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٤٣/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن أبي عبلة ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

غيرُ ممتنع على إرادته مِن الفخامة المُعرِبة عن غاية[١] عظَمة شأنه تعالى وكمالِ كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولي الألباب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: جعلناه ليّنًا في نفسه -كالشمع- يصرّفه في يده كيف يشاء مِن غير إحماءٍ بنار، ولا ضربٍ بمِطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوّته التي آتيناها إيّاه ليّنًا -كالشمع- بالنسبة إلى سائر القوى البشريّة.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعمل، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف عنها "الباء"، وفي حملِها على المفسِّرة تكلّف لا يخفى. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ واسعاتٍ. وقُرئ: "صَابِغَاتٍ"،[٢] وهي الدُّروع الواسعة الضافية، وهو عليه السلام أوّل مَن اتّخذها، وكانت قبلُ صفائحَ.

قالوا: كان عليه السلام حين مَلَك على بني إسرائيل يخرج متنكّرًا فيسألُ الناس: ما تقولون في داود؟ فيُثنُون عليه، فقيّض الله تعالى له مَلَكًا في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال: نِعمَ الرجل لولا خَصلةٌ فيه، فَرِيعَ داودُ، فسأله عنها، فقال: لولا أنّه يُطعِم عيالَه مِن بيت المال، فعند ذلك سأل ربّه أن يُسَبِّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه تعالى صنعةَ الدُّروع. وقيل: كان يبيع الدِّرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدّق على الفقراء.

[٣٦٢ظ] / ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ "السَّرْد" نسجُ الدُّروع، أي: اقتصِد في نسجها بحيث تتناسَبُ حَلَقُها. وقيل: قدِّر مساميرَها، فلا تعملها دِقاقًا ولا غِلاظًا.[٣] ورُدّ بأنّ دُروعه عليه السلام لم تكن مسمَّرة كما ينبئ عنه إلانةُ الحديد.

وقيل: معنى ﴿قَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: لا تصرِف جميع أوقاتك إليه؛ بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمّا الباقي فاصرِفه إلى العبادة. وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ عُمِّم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه السلام ولأهله. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به.

---

١ س: عاية.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٤٣.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح. وقُرئ برفع ﴿ٱلرِّيحَ﴾،[1] أي: ولسليمان الريحُ مسخّرة. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[2]

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جَرْيُها بالغداةِ مسيرةُ شهر، وجَرْيها بالعشيّ كذلك. والجملة إمّا مستأنَفة أو حال مِن ﴿ٱلرِّيحَ﴾. وقُرئ: "غُدْوَتُهَا" و"رَوْحَتُهَا".[3] وعن الحسن رحمه الله تعالى:[4] «كان يغدو -أي: مِن دمشق- فيَقيلُ بإصْطَخْرَ، ثمّ يروح، فيكون رَواحه بِكابُلَ».[5] وقيل: كان يتغدّى بالرَّيّ، ويتعشّى بسَمرقند.

ويُحكَى أنّ بعضهم رأى مكتوبًا في منزل بناحية دجلة، كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام: «نحن نزَلناه وما بنَيناه، ومبنيًّا وجدناه، غدَونا مِن إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله تعالى».[6]

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النُّحاس المذاب، أساله مِن معدِنه، كما ألانَ الحديد لداود عليهما السلام، فنبع منه نبوعَ الماء مِن الينبوع، ولذلك سمّي عينًا، وكان ذلك باليمن. وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيّام.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إمّا جملة مِن مبتدأ وخبر، أو ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال متقدّمة. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره تعالى، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومَن يَعدِلْ / منهم عمّا أمرناه به مِن طاعة سليمان. وقُرئ: "يُزَغْ"[7] على البناء للمفعول، مِن "أزاغَه". [٣٦٣و]

---

١ قرأ بها شعبة عن عاصم. **النشر** لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني. **النشر** لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٩.

٤ ط س - تعالى.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧٣/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٧٢/٣.

٦ عن وهب بن منبّه في **جامع البيان** للطبري، ٢٢٧/١٩؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٧٣/٨.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: عذابِ النار في الآخرة. ورُوي[١] عن السدّي رحمه الله: «كان معه ملَك بيده سَوط مِن نار، كلّما استعصى عليه ضربه مِن حيث لا يراه الجنّي».[٢]

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لِما ذُكر مِن عملهم. وقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾... إلخ بيان لـ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: مِن قصور حصينة، ومساكنَ شريفةٍ، سُمِّيت بذلك لأنّها يُذَبّ عنها ويُحارَب عليها. وقيل: هي المساجد.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصورِ الملائكة والأنبياء عليهم السلام على ما اعتادوه، فإنّها كانت تُعملُ حينئذ في المساجد ليراها الناس، ويعبدوا مثلَ عباداتهم، وحُرمةُ التصاوير شرعٌ جديد. ورُوي أنّهم عملوا أسَدَين في أسفل كرسيّه، ونَسرَين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسَط الأسدان ذراعَيْهما، وإذا قعَدَ أظلّه النسران بأجنحتهما.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع "جَفْنة"، وهي الصَّحفة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحِياض الكِبار، جمع "جابِية"، مِن "الجِباية"، لاجتماع الماء فيها، وهي مِن الصفات الغالبة، كـ"الدابّة". وقُرئ بإثبات "الياء".[٣] قيل: كان يقعد على الجَفنة ألف رجل.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزل عنها لعِظَمها.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية لِما قيل لهم. و﴿شُكْرًا﴾ نصب على أنّه مفعول له، أو مصدر لـ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾؛ لأنّ العمل للمنعِم شكر له، أو لفعله المحذوف، أي: اشكروا شكرًا، أو حال، أي: شاكرين، أو مفعول به، أي: اعملوا شكرًا.

[٣٦٣ظ] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: المتوفِّر على أداء الشكر بقلبه / ولسانه وجوارحه أكثرَ أوقاته، ومع ذلك لا يوفّي حقّه؛ لأنّ التوفيق للشكر نعمة

---

١ ط س: روي.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

٣ أثبتَها أبو عمرو وورش عن نافع وصلًا، وابن كثير ويعقوب وصلًا ووقفًا. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

تستدعي شكرًا آخر لا إلى نهاية، ولذلك قيل: "الشَّكور" مَن يرى عجزَه عن الشكر. ورُوي أنّه عليه السلام جَزَّأَ سَاعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة مِن الساعات إلّا وإنسان مِن آل داود قائم يصلّي.[١]

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان عليه السلام ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنَّ أو آلَه ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرَضةُ، أُضيفت إلى فِعلها. وقُرئ بفتح "الراء"،[٢] وهو تأثّر الخشبة مِن فعلها، يقال: "أَرَضَتِ الأَرَضةُ الخشبةَ أَرْضًا، فَأَرِضَتْ أَرَضًا"، مثل: "أَكَلَت القَوادِحُ[٣] أسنانَه أَكْلًا، فأَكِلَتْ أَكَلًا".

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: عصاه، مِن "نَسَأْتُ البعيرَ" إذا طردتَه؛ لأنّها يُطرَد بها ما يُطرَد. وقُرئ: "مِنْسَاتَهُ" بـ"ألِف" ساكنة بدلًا مِن "الهمزة"،[٤] وبـ"همزة" ساكنةٍ،[٥] وبإخراجها بينَ بينَ عند الوقف،[٦] و"مِنْسَاءَتَهُ" على "مِفْعَالةٍ"،[٧] كَـ"مِيضاءة" في "مِيضَأَةٍ"، و"مِنْ سَأَتِهِ"،[٨] أي: مِن طرَف عصاه، مِنْ "سَأَةِ القَوسِ"، وفيه لغتان كما في "قِحَةٍ"[٩] بالكسر والفتح. وقُرئ: "أَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ".[١٠]

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ مِن "تَبيّنتُ الشيءَ" إذا علمتَه بعد التباسه عليك، أي: علمَت الجنُّ علمًا بيّنًا بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٨٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣.

٢ أي: "الأَرَضِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والعبّاس بن الفضل. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٣ القوادح: جمع القادحة، وهي الدودة التي تأكل السنّ والشجر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قدح».

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٥ قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٦ قرأ بها حمزة الزيّات. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٧.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٩ يقال: وَقُحَ الحافِر وقاحَةً ووُقوحةً وقِحةً وقَحةً، أي: صَلُبَ. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وقح».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٨٨.

﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لَعلموا موته عليه السلام حينما وقع، فلم يلبثوا بعده حَولًا في تسخيره إلى أن خَرّ.

أو مِن "تَبيَّنَ الشيءُ" إذا ظهَر وتجلّى، أي: ظهرت الجنّ، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْجِنُّ﴾، أي: ظهر أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون / الغيبَ... إلخ. [٣٦٤و]

وقُرئ: "تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ"[١] على البناء للمفعول على أنّ المُتَبيَّنَ في الحقيقة هو ﴿أَن﴾ مع ما في صلتِها؛ لأنّه بدل. وقُرئ: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ"،[٢] والضمير في ﴿كَانُوا۟﴾ لـ﴿ٱلْجِنِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾.[٣] وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ".[٤]

رُوي أنّ داود عليه السلام[٥] أسّس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى، فتوفّي قبل تمامه، فوصّى به إلى سليمان عليهم السلام، فاستعمل فيه الجنّ والشياطين، فباشَروه حتّى إذا حانَ أجله وعلِم به سأل ربّه أن يُعمِّيَ عليهم موتَه حتّى يفرغوا منه، ولِتبطل دعواهم عِلمَ الغيب، فدعاهم فبنَوا عليه صرحًا مِن قوارير ليس له باب، فقام يصلّي متّكئًا على عصاه، فقُبِض روحُه وهو متّكئ عليها، فبقي كذلك وهم فيما أُمِرُوا به مِن الأعمال حتّى أكَلَت الأرَضة عصاه فخَرّ ميتًا، وكانت الشياطينُ تجتمع حولَ مِحرابه أينما صلّى عليه السلام، فلم يكن ينظر إليه شيطان في صلاته إلّا احترق، فمرّ به يومًا شيطان فنظر، فإذا سليمان عليه السلام قد خرّ ميتًا، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلَتها الأرَضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرَضة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنةٍ، وكان عمره عليه السلام ثلاثًا وخمسين سنةً، مَلَك وهو ابن ثلاث عشرةَ سنةً، وبقي في مُلكه أربعين سنةً، وابتدأ بناءَ بيت المَقدس لأربعِ مَضين مِن مُلكه.[٦]

---

١ قرأ بها رُويس عن يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعلي بن الحسين والضحّاك. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ سبأ، ٣٤/١٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٩.

٥ م - عليه السلام.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٨١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٧٤.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بيان لإخبار بعض الكافرين بنِعم الله تعالى إثرَ بيان أحوال الشاكرين لها، أي: لأولاد سبأ بنِ يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان. وقُرئ بمنع الصرف[1] على أنّه اسم القبيلة. وقُرئ بقَلب "الهمزة" "ألِفًا"،[2] ولعلّه إخراج لها بينَ بينَ.

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ وقُرئ بكسر "الكاف"،[3] كـ"المسجِد". وقُرئ بلفظ الجمع،[4] / أي: [٣٦٤ظ]
مواضع سُكناهم، وهي باليمن، يقال لها:[5] مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ.

﴿ءَايَةٌ﴾ دالّة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كلّ ما يشاء مِن الأمور البديعة، المُجازِي للمحسِن والمُسيء، معاضِدةٌ للبرهان السابق، كما في قصّتَي داود وسليمان عليهما السلام.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل مِن ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي جنّتان، وفيه معنى المدح، ويؤيّده قراءة النصب[6] على المدح. والمراد بهما جماعتان مِن البساتين.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمين بلدِهم، وجماعة عن شماله، كلُّ واحدة مِن تَينِكَ الجماعتين في تقاربهما وتضامّهما كأنّهما جَنّة واحدة، أو بستان كلّ رجل منهم عن يمين مَسكنه وعن شماله.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ﴾ حكاية لِما قيل لهم على لسان نبيّهم تكميلًا للنعمة، وتذكيرًا لِحُقوقها، أو لِما نطق به لسانُ الحال، أو بيانٌ لكونهم أحقّاءَ بأن يقال لهم ذلك.

---

١ أي: "لِسَبَأ". قرأ بها أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

٢ أي: "لِسَبَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حبيب عن اليزيدي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٦. وقرأ بذلك حمزة الزيّات عند الوقف. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٠.

٣ قرأ بها الكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٤ أي: "مَسَاكِنِهِمْ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٥ ط س: له.

٦ أي: "جَنَّتَيْنِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٤. وقال في توجيهها: «على أنّ ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، و"جنتين" الخبر».

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئناف مبيّن لِما يوجب الشكرَ المأمور به، أي: بلدتكم بلدة طيّبة، وربّكم الذي رزقكم ما فيها مِن الطيّبات وطلَب منكم الشكرَ ربٌّ غفور لِفَرطات مَن يشكره. وقُرئ الكلّ بالنصب[١] على المدح.

قيل: كان أطيبَ البلاد هواءً وأخصبَها، وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المِكتل، فتعمل بيدَيها، وتسير فيما بين الأشجار، فيمتلئ المِكتل ممّا يتساقط فيه مِن الثمار، ولم يكن فيه مِن مؤذيات الهوامّ شيء.[٢]

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه. قيل: أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيًّا فدَعَوهم إلى الله تعالى، وذكّروهم بنِعَمِه، وأنذروهم عقابَه، فكذّبوهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: سيلَ الأمرِ العَرِم، أي: الصعب، مِن "عَرِمَ الرجلُ، فهو عارِم، وعَرِمٌ"، إذا شَرِسَ خُلُقه وصَعُب، أو المطرِ الشديدِ. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ جمع "عَرَمة"، وهي الحجارة المَركومة. وقيل: هو السِّكْر[٣] الذي يحبِس الماء. وقيل: هو اسم للبناء يُجعل سَدًّا.

[٣٦٥و] / وقيل: هو البناء الرَّصين الذي بَنَتْها الملِكة بِلقيسَ بين الجبلَين بالصخر والقار، وحقَنَت به ماء العيون والأمطار، وتركَت فيها خروقًا على ما يحتاجون إليه في سقيهم. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ الجُرَذ الذي نقَب عليهم ذلك السدّ، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، سلّطه الله تعالى على سدّهم، فنَقَبه، فغرّق بلادهم. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ اسم الوادي.

وقرئ:[٤] "الْعَرْمِ" بسكون "الراء".[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن وزير عن يعقوب. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٩٠.

٢ **تفسير ابن أبي حاتم**، ٣١٦٥/١٠؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٥٧٥/٣.

٣ السكر -بفتح "السين" وكسرها وسكون "الكاف" ثم "راء" مهملة-: الجِسر والسّدّ على الماء. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ١٩٦/٧.

٤ س: وقيل.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عروة بن الورد. **مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه**، ص ١٢٢.

قالوا: كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبيّ صلّى الله عليهما وسلّم.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنّتيهم وآتينا بدلَهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمرٍ بَشِعٍ، فإنّ "الخَمْط" كلّ نَبْتٍ أخذ طعمًا مِن مرارة حتّى لا يُمكن أكله. وقيل: هو الحامِض والمرُّ مِن كلّ شيء.

وقيل: هو ثمرةُ شجرةٍ يقال لها: "فَسْوةُ الضَّبُع" على صورة الخَشخاش، لا يُنتفَع بها. وقيل: هو الأراك، أو كلّ شجر ذي شوك. والتقدير: "أُكُلٍ أُكُلِ خَمْطٍ"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه.

وقُرئ: "أُكُلِ خَمْطٍ" بالإضافة،[1] وبتخفيف ﴿أُكُلٍ﴾.[2]

﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنّ "الأَثْل" هو الطَّرْفاء. وقيل: شجر يُشبهه أعظَمُ منه لا ثمرَ له. وقُرئ: "وَأَثْلًا وَشَيْئًا"،[3] عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

قيل: وصف "السِّدر" بالقِلّة لِما أنّ جَناه -وهو "النَّبِق"- ممّا يَطيب أكلُه، ولذلك يُغرس في البساتين. والصحيح أنّ "السِّدر" صنفان؛ صنف يُؤكل مِن ثمره، ويُنتفع بورَقه لغَسل اليد، وصنف له ثمرة عَفْصة لا تُؤكل أصلًا، ولا يُنتفع بورَقه، وهو "الضالّ"، والمراد ههنا هو الثاني حتمًا. وقال قَتادةُ: «كان شجرهم خيرَ الشجر، فصيّره الله تعالى مِن شرّ الشجر بأعمالهم».[4] وتسميةُ البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة والتهكّم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ أو إلى ما ذُكر مِن التبديل، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد رُتبته في الفظاعة. ومحلّه على الأوّل النصب

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٢ أي: "أُكْلٍ" بسكون "الكاف". قرأ بها نافع وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، حكاها الفضل بن إبراهيم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

٤ جامع البيان للطبري، ٢٥٨/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨٤/٨.

على أنّه مصدر مؤكِّد للفعل المذكور، وعلى الثاني النصب على أنّه مفعول ثانٍ
[٣٦٥ظ] له، أي: ذلك الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم / لا جزاءً آخر، أو ذلك التبديلَ جزيناهم لا غيرَه.

﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ بسبب كُفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضِدَّها، أو بسبب كفرهم بالرسل.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: وما نُجازي هذا الجزاءَ إلّا المبالِغ في الكفران أو الكفر. وقُرئ: "يُجَازِي"[١] على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ. و"هَلْ يُجَازَى" على البناءِ للمفعول ورفعِ ﴿ٱلْكَفُورَ﴾،[٢] و"هَلْ يُجْزَى"[٣] على البناء للمفعول أيضًا.

وهذا بيانُ ما أوتوا مِن النِّعم الحاضرة في مساكنهم، وما فَعلوا بها مِن الكفران، وما فُعِل بهم مِن الجزاء.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ حكايةٌ لِما أوتوا مِن النِّعم البادية في مسائرهم ومتاجرهم، وما فَعلوا بها مِن الكُفران، وما حاق بهم بسبب ذلك، تكملةً لقصّتهم، وبيانًا لعاقبتهم، وإنّما لم يُذكر الكلّ معًا لِما في التثنية والتكرير مِن زيادة تنبيه وتذكيرٍ.

وهو عطفٌ على ﴿كَانَ لِسَبَإٍ﴾،[٤] لا على ما بعده مِن الجمل الناطقة بأفعالهم، أو بأجزيتها، أي: وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم مِن فنون النِّعم بينهم -أي: بين بلادهم- وبين القرى الشاميّة التي باركنا فيها للعالمين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن وثّاب والنخعي. المحتسب لابن جنّي، ١٨٩/٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلم بن جُندب. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

٤ سبأ، ١٥/٣٤.

متواصلةً يُرى بعضُها مِن بعضٍ لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبةً متنَ الطريق ظاهرةً للسابلة غيرَ بعيدة عن مسالكهم حتّى تخفى عليهم.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معيّن يليق بحال أبناء السبيل. قيل: كان الغادي مِن قرية يَقيل في أخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام. كلّ ذلك كان تكميلًا لِما أُوتوا مِن أنواع النعماء، وتوفيرًا لها في الحضر والسفر.

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ على إرادة القول، أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم مِن الليالي والأيّام ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما تكرهونه، لا يختلف الأمنُ فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين وإن تَطاولت مدّةُ سفركم وامتدّت لياليَ وأيّامًا كثيرةً، أو سيروا فيها لياليَ / أعماركم [٣٦٦و] وأيّامَها، لا تلقَون فيها إلّا الأمن، لكن لا على الحقيقة؛ بل على تنزيل تمكينهم مِن السير المذكور، وتسويةِ مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلةَ أمرِهم بذلك.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقُرئ: "يَا رَبَّنَا".[1] بطروا النعمةَ، وسئِمُوا أطيب العيش، وملّوا العافيةَ، فطلبوا الكدّ والتعب، كما طلب بنو[2] إسرائيل الثومَ والبصل مكان المنّ والسلوى. وقالوا: لو كان جَنَا جِنّاتِنا أبعدَ لكان أجدرَ أن نشتهيَه، وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوِز وقِفارًا ليركبوا فيها الرواحل، ويتزوّدوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، فعجّل الله تعالى لهم الإجابةَ بتخريب تلك القرى المتوسّطة، وجعلها بَلقعًا لا يُسمع فيه داعٍ ولا مجيب.

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري غير منسوبة.

٢ م: بنوا.

انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٧.

وقُرئ: "بَعِدْ"،[١] و"رَبَّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"،[٢] و"بُعِّدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"[٣] على النداء وإسنادِ الفعل إلى "بَيْنَ" ورفعِه به، كما يُقال: "سِيرَ فرسخان"، و"بُوعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا".[٤]

وقُرئ: "رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"،[٥] و"بَيْنَ سَفَرِنَا"،[٦] و"بَعَّدَ"[٧] برفع ﴿رَبَّنَا﴾ على الابتداء، والمعنى على خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسائرهم مع قِصَرها، ودنُوِّها وسهولة سلوكها، لفَرْط تنعّمهم، وغايةِ ترفُّههم، وعدمِ اعتدادهم بنِعم الله تعالى، كأنّهم يَتَشاجَون على الله تعالى ويتحازَنُون عليه.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرّضوها للسخط والعذاب حين بَطِرُوا النِّعمةَ،[٨] أو غَمَطوها،[٩] ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: جعلناهم بحيث يتحدّث الناس بهم متعجّبين مِن أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم، ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرّقناهم كلَّ تفريق على أنّ "المُمزَّق" مصدر، أو كلَّ مَطْرَح ومكانِ تفريقٍ، على أنّه اسم مكانٍ. وفي عبارة التمزيق الخاصِّ بتفريق المتّصل وخرقِه مِن تهويل الأمر والدلالة على شدّة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزّقناهم تمزيقًا لا غايةَ وراءه بحيث يُضرَب به الأمثال / في كلّ فُرقة ليس بعدها وِصال، حتّى لحِق غسّان بالشام، وأنْمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأَزدُ بِعُمان. [٣٦٦ظ]

وأصل قصّتهم على ما رواه الكلبي عن أبي صالح أنّ عمرو بن عامرٍ مِن أولاد سبأ، وبينهما اثنا عشر أبًا، وهو الذي يقال له: مزيقيا بن ماء السماء، أخْبَرَته طُريفةُ الكاهنة بخراب سدّ مأرِبَ، وتفريقِ سيل العَرِم الجنّتين.[١٠]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن أبي الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري وأبي عمران الجوني. زاد المسير لابن الجوزي، ٣/٤٩٦.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٩.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وابن الحنفية وعمرو بن فائد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٨.

٨ وفي هامش م: على القراءتين الأوليَين. «منه». | وهُما: "رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"، و"رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا".

٩ وفي هامش م: على القراءات الأواخر. «منه». | وهي: "رَبُّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"، وما بعدها.

١٠ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٩٢.

وعن أبي زيد الأنصاري[١] أنّ عَمرًا[٢] رأى جُرذًا يحفر السدّ، فعلم أنّه لا بقاءَ له بعدُ.[٣]

وقيل: إنّه كان كاهنًا وقد علِمه بكهانته، فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف مِن بلد إلى بلد، حتّى انتهى إلى مكّة المعظّمة وأهلُها جُرْهُم، وكانوا قهروا الناس وحازوا ولايةَ البيت على بني إسماعيل عليه السلام وغيرِهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن[٤] عامر يسألُهم المُقامَ معهم إلى أن يرجع إليه رُوّادُه الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعًا يَسَعُه ومَن معه مِن قومه، فأَبَوا، فاقتتلوا ثلاثة أيّام، فانهزمت جُرْهم، ولم يُفلِتْ منهم إلّا الشَّرِيد، وأقام ثعلبة بمكّة وما حولها في قومه وعساكره حَولًا، فأصابتهم الحمّى، فاضطرُّوا إلى الخروج وقد رجع إليه رُوّاده، فافترقوا فرقتين، فرقة توجّهت نحو عُمانَ، وهم الأَزْدُ[٥] وكِندة وحِميَر ومَن يتلوهم، وسار ثعلبة نحو الشام، فنزل الأوْسُ وألخزرجُ ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة، وهم الأنصار، ومضت غسّان فنزلوا بالشام، وانخزعت خزاعة بمكّة، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو لُحَيٌّ، فولّي أمر مكّة وحِجابةَ الكعبة، ثمّ جاءهم أولادُ إسماعيل عليه السلام، فسألوهم السُّكنى معهم وحولَهم، فأذِنُوا لهم في ذلك.[٦]

---

١ هو سعيد بن أوس الأنصاري، البصري، أبو زيد (ت. ٢١٥هـ/٨٣٠م). الإمام، العلّامة، حجّة العرب، النحوي، حدّث عن سليمان التيمي، ورؤبة بن العجّاج، وأبي عمرو بن العلاء، وسعيد بن أبي عروبة، وعِدّة. وحدّث عنه خلف بن هشام البزّار، وتلا عليه، وأبو عبيد القاسم، وأبو حاتم السجستاني، وخلق كثير. مِن تصانيفه: **النوادر في اللغة، والهمز، والمطر، وخلق الإنسان، ولغات القرآن، والشجر، وبيوتات العرب، والفرق، وغريب الأسماء**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٩/٤٩٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/٩٢.

٢ م: عمروًا.

٣ انظر: **سيرة ابن هشام**، ١/١٣؛ **وتفسير ابن كثير**، ٦/٥١٠.

٤ س: ابن.

٥ الأَزْد: حيّ مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأَزْد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: «ويقال فيهم: "الأَسْد" بـ"السين" المهملة بدل "الزاي"». قال الجوهري: «وهو بـ"الزاي" أفصح». والأَزْد مِن أعظم الأحياء وأكثرها بطونًا، وأمدِّها فروعًا. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٩١.

٦ انظر: **جامع الآثار** للدمشقي، ٢/٣٢٥.

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ فَرْوَةَ بن مُسَيك الغطيفي[١] سأل
[٣٦٧و] النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن سبأ، فقال له عليه السلام: / «هو رجل كان له عشرة أولاد، ستّة منهم سكنوا اليمن، وهم مَذحِج[٢] وكِندة والأزْد والأشعريّون[٣] وحِمير وأنمار؛[٤] منهم بَجِيلة[٥] وخَثعم،[٦] وأربعة منهم سكنوا[٧] الشام، وهم لَخم وجذام[٨] وعاملة[٩] وغسّان».[١٠]

---

١ هو فَروة بن مُسَيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي، المرادي، أبو عمر (ت. نحو ٣٠هـ/ ٦٥٠م). صحابي، أصله مِن اليمن. وفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة تسع أو عشر وأسلم. ونزل على سعد بن عبادة، وأجزاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمبلغ مِن المال، واستعمله على مراد ومذحج وزُبيد، وكتب له كتابًا فيه فرائض الصدقة، فعاد إلى بلاده. وقاتل أهل الردّة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وبقي إلى خلافة عمر بن الخطّاب، وأقرّه عمر. سكن الكوفة في أواخر أعوامه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥/٢٨١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٥/١٤٣.

٢ مَذْحِج: لغةٌ في "مَذحِج"، بالذال معجمة، وغير معجمة، قبيلة مِن اليمن مِن ولد مالك. وهو مَدحِج بن أُدَد بن زَيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كَهلان. **شمس العلوم** للحميري، ٤/٢٠٤٢.

٣ الأشعريّون: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأشعَر بن أُدَد بن زَيد يجشب بن عريب بن زيد بن كَهلان، قال أبو عبيدة: وسمّي "الأشعَر" لأنّ أمّه ولدته وهو أشعَر. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/١٦٨.

٤ بنو أَنمار: حيّ مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو أنمار بن أراش بن عمرو بن غوث بن نبيت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: وولد أَنمار هذا خثعم، وأمّه هند بنت مالك بن العاص بن الشاهد بن عكّ، وعنفر والغوث وهنيّة وخُزيمة، وأمّهم بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة وبها يُعرفون. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٨٧.

٥ بنو بَجيلة: قبيلة مِن أَنمار بن أراش مِن كَهلان مِن القحطانيّة. و"بَجيلة" أمّهم، غلب عليهم اسمها، وهي بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة. قال في **العِبر**: هم بنو بَجيلة بن أنمار بن أراش. قال: وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في سَروات اليمن والحجاز إلى تبالة، ثمّ افترقوا أيّام الفتح الإسلامي في الآفاق، فلم يبقَ منهم في مواطنهم إلّا القليل. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/١٧١.

٦ بنو خَثعم: بطن مِن أنمار بن أراش مِن القحطانيّة، وكان لخثعم مِن الولد خلَف، وأمّه عاتكة بنت ربيعة بن نزار. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٢٤٣.

٧ م: سكنو.

٨ كذا في الأصول الخطّيّة بـ"الدال" المهملة، والصواب "جُذام" بـ"الذال" المعجمة. وبنو جُذام: بطن مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو جُذام بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. و"الجُذام" في أصل اللغة اسم للداء المعروف، فيحتمل أنّ اسم الرجل منقول عنه، ويحتمل أنّه مأخوذ مِن "الجَذم"، وهو القطع. انظر: **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٢٠٦.

٩ بنو عاملة: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو عاملة، واسمه الحارث بن عفيرة بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن زيد بن كهلان. وذكر أبو عبيد: أنّ بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك بن وديعة بن عفير بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٣٣٣.

١٠ انظر: **مسند أحمد**، ٥/٧٥ (٢٨٩٨)؛ و**سنن الترمذي**، ٥/٣٦١ (٣٢٢٢).

لمّا هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرّقوا أيدي سبأ شَذَرَ مَذَرَ، فنزلت طوائف منهم بالحجاز، فمنهم خُزاعة نزلوا بظاهر مكّة، ونزلت الأوس والخزرج بيثرب، فكانوا أوّل مَن سكنها، ثمّ نزل عندهم ثلاث قبائل مِن اليهود؛ بنو[١] قينقاع وبنو[٢] قريظة والنضير، فَحالفوا[٣] الأوسَ والخزرجَ، وأقاموا عندهم، ونزلت طوائف أُخَرُ منهم بالشام، وهم الذين تنصّروا فيما بعدُ، وهم غسّان وعاملة ولَخم وجدام وتنُوخ[٤] وتَغلِب وغيرهم، وسبأ تجمع هذه القبائل كلَّها.

والجمهور على أنّ جميع العرب قسمان: قحطانيّة، وعدنانيّة، والقحطانيّة شِعبان: سبأٌ، وحضرموت، والعدنانيّة شِعبان: ربيعة، ومُضَر، وأمّا قضاعة فمختلف فيها، فبعضهم ينسبونها إلى قَحطان، وبعضهم إلى عدنان، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قِصّتهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: شأنُه الصبرُ عن الشهوات ودواعي الهوى، وعلى مشاقّ الطاعات، والشكر على النِّعم، وتخصيصُ هؤلاء بذلك لأنّهم المنتفِعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقّق عليهم ظنّه، أو وجده صادقًا. وقُرئ بالتخفيف،[٥] أي: صدَق في ظنّه، أو صدَق بظَنٍّ ظنَّه. ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه؛ لأنّه نوع مِن القول. وقُرئ بنصب ﴿إِبْلِيسُ﴾ ورفعِ "الظَّنّ" مع التشديد،[٦]

---

١ م: بنوا.
٢ م: بنوا.
٣ س: فخالفوا.
٤ تَنُوخ: هم حيّ مِن اليمن، مِن القحطانيّة، وذكر المؤيّد صاحب حماة في تاريخه: أنّهم مِن قُضاعة، وقال أبو عبيد: هم ثلاثة أبطن؛ نزار، والأحلاف أسد وعفّان، سمّوا بذلك لأنّهم حلَفوا على المُقام بمكان الشام، والتَّنُّخ المُقام.

٥ أي: "صَدَقَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.
٦ أي: "صَدُقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

انظر: نهاية الأرب للقلقشندي، ١/١٨٩.

بمعنى: وجده ظنَّهُ صادقًا، ومع التخفيف[1] بمعنى: قال له الصدقَ حين خيّله إغواءَهم، وبرفعهما والتخفيفِ[2] على الإبدال، وذلك إمّا ظنّه بسبَأ حين رأى انهماكهم في الشهوات، / أو ببني آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى [٣٦٧ظ] وسوسته قال: إنّ ذرّيّته أضعف منه عزمًا. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنّه يجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء، وقال: لَأُضِلَّنّهم ولأُغوينَّهم.

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ أو الناس ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلّا فريقًا هم المؤمنون لم يتّبعوه، على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفّار، أو إلّا فريقًا مِن فِرق المؤمنين لم يتّبعوه، وهم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلّط واستيلاء بالوَسوسة والاستغواء. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ العِلل. و﴿مَن﴾ موصولة، أي: وما كان تسلّطه عليهم إلّا ليَتعلّق علمنا بمَن يؤمن بالآخرة متميّزًا ممَّن هو في شكّ منها تعلّقًا حاليًا يترتّب عليه الجزاء، أو إلّا ليتميّز المؤمن مِن الشاكّ، أو إلّا ليؤمن مَن قُدّر إيمانه، ويَشكّ مَن قُدّر ضلاله، والمراد مِن حصول العلم حصول متعلَّقه مبالغةً.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: محافِظ عليه، فإنّ "فَعيلًا" و"مُفاعِلًا" صيغتان متآخِيتان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

١ أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمّد وأبي الجهجاه الأعرابي وبلال بن أبي برزة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٥٤٠؛ **وتفسير القرطبي**، ١٤/٢٩٢.

٢ أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٥٤٠.

﴿قُلِ﴾ أي: للمشركين إظهارًا لبطلان ما هم عليه، وتَبكيتًا لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، وهما مفعولا "زَعَمَ"، ثمّ حُذف الأوّل تخفيفًا لطول الموصول بصِلته، والثاني لقيام صِفته -أعني: قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾- مَقامه، ولا سبيل إلى جعله مفعولًا ثانيًا؛ لأنّه لا يلتئِم مع الضمير كلامًا، وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنّهم لا يزعمونه، والمعنى: ادعوهم فيما يهمّكم مِن جلب نفع أو دفع ضرّ لعلّهم يستجيبون لكم إن صحّ دعواكم.

ثمّ أجاب عنهم إشعارًا بتعيّن الجواب، وأنّه لا يقبل المكابَرة، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِن خير وشرّ، ونفع وضرّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أمرٍ ما مِن الأمور. وذِكرُهما للتعميم عُرفًا، أو لأنّ آلهتهم بعضها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيّة كالأصنام، أو لأنّ الأسبابَ القريبة للخير والشرّ سماويّة وأرضيّة. والجملة استئناف لبيان حالهم.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركةٍ، لا خَلقًا ولا ملكًا ولا تصرّفًا، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ مِن آلهتهم ﴿مِن ظَهِيرٍ﴾ يعينه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: لا توجد رأسًا، كما في قوله:

ولا تــرى الــضــبَّ بــهــا يَــنــجَــحِــرا[1]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٥]، وإنّما عُلِّق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحًا بنفي ما هو غرضهم مِن وقوعها.

---

[1] صدره:

ولا يُــفــزِع الأرنــبَ أهــوالُــهــا

البيت لعَمرو بن أحمر الباهلي. و"الإفزاع": الإخافة. و"الأرنبَ": مفعول مقدّم. و"أهوالُها": فاعل "يفزع"، والضميرُ للمفازة والفلاة. و"الانجحار": الدخول في الجُحْر؛ وهو ما حفَرَه الهوامّ والسِّباع لأنفسها. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١٠/١٩٢.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تقع الشفاعة في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لِمَن أَذِنَ له في الشفاعة مِن النبيّين والملائكة ونحوِهم مِن المستأهِلين لمَقام الشفاعة، فتبيّن حِرمان الكفرة منها بالكلّيّة، أمّا مِن جِهة أصنامهم فلِظهور انتفاءِ الإذن لها ضرورةَ استحالة الإذن في الشفاعة لجمادٍ لا يعقل ولا ينطق، وأمّا مِن جهة مَن يعبدونه مِن الملائكة فلأنّ إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقّين لها، لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ، ٣٨/٧٨]. ومِن البَيِّن أنّ الشفاعة للكفرة بمَعزِل مِن الصواب.

أو لا تنفع الشفاعة مِن الشفعاء المستأهِلين لها في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لمَن أَذِن له، أي: لأجله وفي شأنه مِن المستحقّين للشفاعة، وأمّا مَن عَداهم مِن غير المستحقّين لها فلا تنفعهم أصلًا وإن فُرِض وقوعُها وصدورها عن الشفعاء؛ إذ لم يُؤذَن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، فعلى هذا يثبت حرمانهم عن شفاعة هؤلاء بعبارة النصّ، وعن شفاعة الأصنام / بدلالته؛ [٣٦٨ظ] إذ حين حُرِمُوها مِن جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلَأَن يُحْرَمُوها[1] مِن جهة العجَزة عنها أولى. وقُرئ: "أُذِنَ لَهُ" مبنيًّا للمفعول.[2]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوبِ الشفعاء والمشفوعِ لهم مِن المؤمنين، وأمّا الكفرة فهم مِن موقف الاستشفاع بمَعزِل، وعن التفزيع عن قلوبهم بألفِ مَنزل. و"التفزيع" إزالةُ الفزَع، ثمّ تُرك ذكر الفزَع وأُسند الفعل إلى الجارّ والمجرور. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لِما ينبئ عنه ما قبلها مِن الإشعار بوقوع الإذن لمَن أَذِن له، فإنّه مسبوق بالاستئذان المستدعي للترقّب والانتظار للجواب، كأنّه سُئِل: كيف يُؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون في موقف الاستئذان والاستدعاء، ويتوقّفون على وجَلٍ وفزَعٍ مَلِيًّا، حتّى إذا أُزيلَ الفَزَع عن قلوبهم بعد اللَّتيّا والتي،[3] وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشفوعُ لهم؛

---

[1] س: يُحْرَموا.

[2] قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢

[3] اللَّتيّا والَّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

إذ هم المحتاجون إلى الإذن، والمهتمّون بأمره: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في شأن الإذن؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: الشفعاء؛ لأنّهم المباشِرون للاستئذان بالذات، المتوسّطون بينهم وبينه عزّ وجلّ بالشفاعة: ﴿الْحَقَّ﴾ أي: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ في الشفاعة للمستحقّين لها. وقُرئ: "الحَقُّ" مرفوعًا،[1] أي: ما قاله الحقُّ.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ مِن تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافًا بغاية عَظَمة جَناب العزّة عزّ وجلّ، وقُصور شأن كلّ مَن سواه، أي: هو المتفرّد بالعلوّ والكبرياء، ليس لأحد مِن أشراف الخلائق أن يتكلّم إلّا بإذنه.

وقُرئ: "فُزِعَ" مخفّفًا[2] بمعنى ﴿فُزِّعَ﴾. وقُرئ: "فَزَّعَ" على البناء للفاعل،[3] وهو الله وحده. وقُرئ: "فُرِّغَ" بـ"الراء" المهملة و"الغين" المعجمة،[4] أي: نُفِيَ الوجَل عنها وأُفْنِيَ، مِن "فَرَغَ الزادُ" إذا لم يبقَ منه شيء، وهو مِن الإسناد المجازي؛ لأنّ الفراغَ -وهو الخلوّ- حالُ ظرفه عند نفاده، فأُسندَ إليه، على عكس قولهم: "جَرى النهر". وعن الحسن تخفيف "الراء"،[5] وأصله: فَرَغَ الوَجَلُ عنها، أي: انتفى عنها وفَنِي، ثمّ حُذف الفاعل وأُسندَ إلى الجارّ والمجرور، وبه يُعرف حالُ التفريغ. وقُرئ: "افْرُنْقِعَ عَن قُلُوبِهِمْ"[6] بمعنَى: انكُشِفَ عنها.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۙ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم / مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أُمِرَ عليه السلام بتبكيت المشركين، بحملهم على الإقرار بأنّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرّة فيهما، وأنّ الرازق [٣٦٩و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والحسن وأيّوب السختياني وقتادة وأبي مجلز. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

هو الله تعالى، فإنّهم لا يُنكرونه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾... ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ٣١/١٠].

وحيث كانوا يتلعثمون أحيانًا في الجواب مخافةَ الإلزام قيل له عليه السلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضًا. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنّ أحد الفريقين مِن الذين يوحِّدون المتوحِّدَ بالرزق والقدرةِ الذاتيّة، ويخصّونه بالعبادة، والذين يشركون به في العبادة الجمادَ النازلَ في أدنى المراتب الإمكانيّة، لَعَلَى أحد الأمرين مِن الهدى والضلال المبين، وهذا بعد ما سبَق مِن التقرير البليغ الناطق بتعيين مَن هو على الهدى ومَن هو في الضلال أبلغَ مِن التصريح بذلك، لجريانه على سَنن الإنصاف المُسكِت للخَصم الألدّ.

وقُرئ: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ إِمَّا عَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ".[1]

واختلاف الجارَّين للإيذان بأنّ الهادي كمَن استعلى مَنارًا ينظر الأشياء ويتطلّع عليها، والضالَّ كأنّه منغمِس في ظلامٍ لا يرى شيئًا، أو محبوسٌ في مَطمورة لا يستطيع الخروج عنها.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا أبلغ في الإنصاف، وأبعد مِن الجدل والاعتساف، حيث أُسندَ فيه الإجرامُ -وإن أريدَ به الزلّةُ وتركُ الأَولى- إلى أنفسهم، ومطلقُ العمل إلى المخاطَبين، مع أنّ أعمالهم أكبر الكبائر.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَحكم بيننا ويَفصل بعد ظهور حال كلٍّ منّا ومنكم، بأن يُدخل المحقّين الجنّةَ، والمبطلين النارَ.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. **الكشّاف** للزمخشري، ٥٨٢/٣.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يُقضى به.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

/ ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أريدَ بأمرهم بإراءةِ [٣٦٩ظ]
الأصنام مع كونها بمَرأًى منه عليه السلام إظهارُ خطئهم العظيم، وإطْلاعُهم على بطلان رأيهم، أي: أرُونِيها لأنظرَ بأيِّ صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة. وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجّة عليهم.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسة؛ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بالغلبة القاهِرة والحكمة الباهِرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلّها مِن هذه الرتبة العالية؟ والضمير إمّا لله عزّ وعلا، أو للشأن، كما في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١/١١٢].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: إلّا إرسالةً عامّةً لهم، فإنّها إذا عَمَّتْهم فقد كَفَّتْهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلّا جامعًا لهم في الإبلاغ، فهي حال مِن "الكاف"، و"التاءُ" للمبالغة، ولا سبيلَ إلى جعلها حالًا مِن ﴿النَّاسِ﴾ لاستحالة تقدّم الحال على صاحبها المجرور. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على ما هم عليه مِن الغيّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط جهلهم وغايةِ غيّهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريق الاستهزاء، يعنون به المبشَّرَ به والمنذَرَ عنه، أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾.[1] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مخاطِبين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين به.

---

[1] سبأ، ٢٦/٣٤.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعدُ يومٍ، أو زمانُ وعدٍ، والإضافة للتبيين. وقُرئ: "مِيعَادٌ يَوْمٌ" منوَّنَين[١] على البدل، و"يَوْمًا"[٢] بإضمار "أعْني" للتعظيم. ﴿لَا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾[٣] عند مفاجأته ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ صفة لـ﴿مِيعَادُ﴾، وفي هذا الجواب مِن المبالغة في التهديد ما لا يخفى، حيث جُعِل الاستِئخار في الاستحالة كالاستِقدام الممتنع عقلًا، وقد مرّ بيانه مرارًا. ويجوز أن يكون نفي الاستئخار[٤] والاستقدام غيرَ مقيَّد بالمفاجأة، / فيكون وصفُ "الميعاد" بذلك [٣٧٠و] لتحقيقه وتقريره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن الكتب القديمة الدالّة على البعث. وقيل: إنّ كفّار مكّة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخبروهم أنّهم يجدون نَعته في كتبهم، فغضِبوا، فقالوا ذلك.[٥] وقيل: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القيامة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في موقف المحاسبة، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاوَرون ويتراجعون القول، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ بدل مِن ﴿يَرْجِعُ﴾... إلخ، أي: يقول الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي: لولا إضلالُكم وصدُّكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٣ م س ط - ساعة.

٤ س: الاستنحار.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/٤.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ منكِرين لكونهم هم الصادّين لهم عن الإيمان، مثبتين أنّهم هم الصادّون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الإجرام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ إضرابًا عن إضرابهم، وإبطالًا له: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صَدُّنا مكرُكم بنا بالليل والنهار، فحُذف المضاف إليه، وأقيمَ مُقامه الظرفُ اتّساعًا، أو جُعل ليلُهم ونهارهم ماكرَين على الإسناد المجازي.

وقُرئ: "بَلْ مَكْرٌ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" بالتنوين ونصبِ الظرفَين،[1] أي: بل صَدُّنا مكرُكم في الليل والنهار، على أنّ التنوين عوض عن المضاف إليه، أو مكرٌ عظيمٌ، على أنّه للتفخيم. وقُرئ: / "بَلْ مَكَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" بالرفع[2] والنصب،[3] [٣٧٠ظ] أي: تَكُرُّون الإغواءَ مَكَرًا دائبًا لا تَفتُرون عنه، فالرفع على الفاعليّة، أي: بل صَدُّنا مَكرُكم الإغواءَ في الليل والنهار، على ما سبق مِن الاتّساع في الظرف بإقامته مُقام المضاف إليه، والنصبُ على المصدريّة، أي: بل تَكُرُّون الإغواءَ مكرَّ الليل والنهار، أي: مَكَرًا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ ظرف للمَكْر، أي: بل مَكرُكم الدائم وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على أنّ المرادَ بمَكرِهم إمّا نفسُ أمرِهم

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن راشد القارئ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

بما ذُكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة، ٢٠/٥]، فإنّ الجَعلين المذكورين نعمة مِن الله تعالى وأيُّ نعمة، وإمّا أمورٌ أُخَرُ مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به، مِن الترغيب والترهيب وغير ذلك.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أضمَر الفريقان الندامةَ على ما فعلا مِن الضلال والإضلال، وأخفاها كلّ منهما عن الآخر مخافةَ التعيير، أو أظهروها، فإنّه مِن الأضداد، وهو المناسب لحالهم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في أعناقهم. والإظهار في موضع الإضمار للتنويه بذمّهم، والتنبيهِ على مُوجِب أغلالهم.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يُجزَون إلّا جزاءَ ما كانوا يعملونه، أو إلّا بما كانوا يعملونه، على نَزع الجارّ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ مِن القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا مُنِيَ به مِن قومه مِن التكذيب والكفرِ بما جاء به، والمنافسةِ بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخَرةِ بحظوظ الدنيا وزخارفها، والتكبّرِ بذلك / على المؤمنين، والاستهانةِ بهم [٣٧١و] مِن أجله، وقولِهم: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم، ٧٣/١٩]، بأنّه لم يُرسل قطّ إلى أهل قرية مِن نذير إلّا قال مترفوهم مثلَ ما قال مُترفوا أهلِ مكّة في حقّه عليه السلام، وكادوا به نحو ما كادوا به عليه السلام، وقاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزعموا أنّهم لو لم يَكْرُموا على الله تعالى لَما رزقهم طيّباتِ الدنيا، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه تعالى لَما حَرَمَهُموها، وعلى ذلك الرأي الركيك بنَوا أحكامهم.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إمّا بناءً على انتفاء العذاب الأخروي رأسًا، أو على اعتقاد أنّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يُهينهم في الآخرة على تقدير وقوعها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم وحَسْمًا لمادّة طمَعهم الفارغ، وتحقيقًا للحقّ الذي عليه يدور أمر التكوين: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[1] له، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على مَن يشاء أن يَقْدِره عليه مِن غير أن يكون لأحدٍ من الفريقين داعٍ إلى ما فُعِل به مِن البسط والقَدْر، فربّما يوسّع على العاصي، ويضيّق على المطيع، وربّما يعكِس الأمر، وربّما يوسّع عليهما معًا، وقد يضيّق عليهما، وقد يوسّع على شخصٍ تارةً، ويضيّق عليه أخرى، يفعل كلًّا مِن ذلك حسبَما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، فلا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذَين مَناطُهما الطاعَةُ وعدمُها. وقُرئ: "وَيُقَدِّرُ" بالتشديد.[2]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيزعمون أنّ مدار البسط هو الشرف والكرامة، ومدارَ القَدْر هو الهوان، ولا يدرون أنّ الأوّل كثيرًا ما يكون بطريق الاستدراج، / والثاني بطريق الابتلاء ورفع الدرجات. [٣٧١ظ]

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ كلام مستأنَف مِن جهته عزّ وعلا، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقّ وتقريرِ ما سبق، أي: وما جماعةُ أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرِّبكم عندنا قربةً، فإنّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواء في حكم التأنيث، أو بالخَصلة التي تقرّبكم. وقُرئ: "بِالَّذِي"،[3] أي: بالشيء الذي.

---

١ س ط: يبسط.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٣ وبالياء في: ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾. قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناء مِن مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، أي: وما الأموال والأولاد تقرِّبُ أحدًا إلّا المؤمنَ الصالح الذي أنفق أموالَه في سبيل الله تعالى، وعلّمَ أولاده الخيرَ، وربّاهم على الصلاح، ورشّحَهم للطاعة. وقيل: مِن أموالكم وأولادكم، على حذف المضاف، أي: إلّا أموالُ مَن... إلخ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد[1] بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: ثابت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرورَ خبرٌ لِما بعده، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفيه تأكيد لتكرّر الإسناد، أو يثبت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما بعدَه مرتفع على الفاعليّة. وإضافة "الجَزاء" إلى ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ مِن إضافة المصدر إلى المفعول، أصلُه: "فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ"، ثمّ "جَزاءَ الضِّعفَ"، ثمّ ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾. ومعناه: أن يضاعَف لهم حسناتُهم، الواحدةُ عشرًا فما فوقها.

وقُرئ: "جَزَاءُ الضِّعْفُ"،[2] أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، و"جَزَاءَ الضِّعْفَ"[3] / على أن يُجازَوا الضِّعفَ، و"جَزَاءُ الضِّعْفُ"[4] بالرفع، على أنّ "الضِّعْفُ" بدل مِن "جَزَاءٌ". [٣٧٢و]

﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ مِن الصالحات، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غُرفاتِ الجنّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ مِن جميع المَكارِه.

وقُرئ بفتح "الراء"[5] وسكونها.[6] وقُرئ: "فِي الْغُرْفَةِ"[7] على إرادة الجنس.

---

١ س - العهد.

٢ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٧ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردّ والطّعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ سابقين لأنبيائنا، أو زاعمين أنّهم يفوتونَنا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ لا يُجديهم ما عوّلوا عليه نفعًا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يوسّعه عليه تارةً، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي: يضيّقه عليه تارةً أخرى، فلا تخشَوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله، وتعرّضُوا لِنفحاته تعالى.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عوضًا إمّا عاجلًا، وإمّا آجلًا. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّ غيره واسطة في إيصال رِزقه، لا حقيقةَ لرازِقيّته.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون مِن دون الله. و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لمُضمَر متأخّر سيأتي تقديره، أو مفعول لمُضمَر مقدَّم، نحو: "اذكر".

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ تقريعًا للمشركين، وتبكيتًا لهم على نهج قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾... إلخ [المائدة، ١١٦/٥]، وإقناطًا لهم عمّا[1] علّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن شفاعتهم. وتخصيصُ الملائكة لأنّهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم، ولأنّ عبادتهم مبدأ الشرك، فبظهور قُصورهم عن رتبة المعبوديّة وتنزّهِهم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولويّة. وقُرئ الفعلان بـ"النون".[2]

---

[1] س: ممّا.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية سؤال الملائكة، كأنّه قيل: فماذا يقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: يقولون متنزّهين عن ذلك: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أي: أنت الذي نُواليه مِن دونهم، لا موالاةَ بيننا وبينهم، كأنّهم بيّنوا بذلك براءتهم مِن الرضا بعبادتهم، ثمّ أضربوا عن ذلك، ونفَوا أنّهم عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله سبحانه. وقيل: كانوا يتمثّلون لهم، ويُخيّلون لهم أنّهم الملائكة، فيعبدونهم. وقيل: يدخلون أجواف الأصنام إذا عُبِدَت، فيُعبَدون بعبادتها.

[٣٧٢ظ] ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ الضمير / الأوّل للإنس أو للمشركين، والأكثر بمعنى الكلّ، والثاني للجنّ.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ مِن جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرُّؤِ عمّا نسب إليهم الكفرة، يخاطَبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم عند عبَدتهم، وتنصيصًا على ما يوجب خَيبةَ رجائهم بالكلّيّة.

و"الفاء" ليست لترتيب ما بعدها مِن الحِكم على جواب الملائكة، فإنّه محقَّق، أجابوا بذلك أم لا؛ بل لترتيب الإخبار به عليه. ونسبة عدم النفع والضرّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبَدة بنَظمه في سِلك عدم نفع العبَدة لهم، كأنّ نفع الملائكة لعبَدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبَدة لهم. والتعرّض لعدم الضرّ مع أنّه لا بحثَ عنه أصلًا فإمّا لتعميم العجز، أو لحَمل عدم النفع على تقدير العبادة، وعدمِ الضرّ على تقدير تركها، أو لأنّ المراد دفع الضرّ على حذف المضاف. وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقّق النفع يومئذ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطفٌ على "نَقُولُ[1] لِلْمَلَائِكَةِ"،[2] لا على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ كما قيل،[3] لأنّه ممّا يقال يوم القيامة خطابًا للملائكة مترتّبًا على جوابهم المَحكي، وهذا حِكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِما سيُقال للعبَدة يومئذ إثرَ حكاية ما سيُقال للملائكة، أي: يومَ نحشرهم جميعًا ثمّ نقول[4] للملائكة كذا وكذا، ويقولون كذا وكذا، ونقول للمشركين: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بيان لبعض آخَر مِن كَفَراتِهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم / آياتُنا الناطقة بحقّيّة [٣٧٣و]
التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا﴾ يعنون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ فيستتبِعكم بما يستبدِعه مِن غير أن يكون هناك دين إلهي. وإضافة "الآباء" إلى المخاطَبين -لا إلى أنفسهم- لتحريك عِرق العصبيّة منهم مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي: كلام مَصروف عن وجهه، لا مِصداقَ له في الواقع، ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله تعالى.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوّة، أو الإسلامِ، أو القرآنِ، على أنّ العطف لاختلاف العنوان بأن يُراد بالأوّل معناه، وبالثاني نظمُه المعجِز. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ مِن غير تدبّر ولا تأمّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سِحريّته.

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة بـ"النون"، هو مبنيّ على القراءة بـ"النون"، وقد سبق بيانها في سبأ، ٣٤/٤٠.

٢ سبأ، ٣٤/٤٠.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٨٨؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٠.

٤ كذلك هو مبنيّ على القراءة بـ"النون" في الفعلين.

وفي تكرير الفعل، والتصريحِ بذكر الكفرة، وما في "اللامَين"[١] مِن الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن المسارعة إلى البتّ بهذا القول الباطل؛ إنكارٌ عظيم له، وتعجيبٌ بليغ منه.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحّة الإشراك كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم، ٣٥/٣٠]، وقولِه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف، ٢١/٤٣]. وقُرئ: "يُدَرِّسُونَهَا"،[٢] و"يَدَّرِسُونَهَا" بتشديد "الدال"،[٣] "يفتَعِلون" مِن "الدَّرْس".

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه، وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، وقد بانَ مِن قبلُ أن لا وجهَ له بوجه مِن الوجوه، فمِن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟ وهذا غاية تجهيل لهم، وتسفيهٍ لرأيهم.

ثمّ هدّدهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المتقدّمة والقرونِ الخالية كما كذّبوا، ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئك مِن القوّة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغَ أولئك عُشرَ ما آتينا / هؤلاء مِن البيّنات والهدى، ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ بطريق التفصيل والتفسير، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ[٤] قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾... إلخ [القمر، ٩/٥٤]. [٣٧٣ظ]

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذَر هؤلاء مِن مثل ذلك.

---

١ أراد بهما الاسم الموصول المذكور في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولام التعريف في قوله: ﴿لِلْحَقِّ﴾ على سبيل التغليب. انظر: حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ٧١٠/٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

٤ م س ط - قبلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما أُرشدكم وأنصح لكم إلّا بخَصلة واحدة، هي ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ على أنّه بدل منها، أو بيان لها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي أن تَقُوموا مِن مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو تنتصبوا للأمر خالصًا لوجه الله تعالى معرضًا عن المماراة والتقليد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرّقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، فإنّ الازدحام يشوّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام. وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنّه أوثَق وأقرب مِن الاطمئنان.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمره صلّى الله عليه وسلّم وما جاء به؛ لتعلموا حقيقتَه وحَقِّيَّتَه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئناف مَسوق مِن جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمّل بأنّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته[1] مُلك الدنيا والآخرة لا يتصدّى لادّعائه إلّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهورِ عَجزه، أو مؤيَّدٌ مِن عند الله مرشَّح للنبوّة، واثِقٌ بحجّته وبرهانه.

وإذ قد علمتم أنّه عليه السلام أرجحُ العالِمين عقلًا، وأصدقُهم قولًا، وأنزهُهم نفسًا، وأفضلُهم علمًا، وأحسنُهم عملًا، وأجمعُهم للكمالات البشريّة؛ وجَب أن تصدّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمّ إلى ذلك معجزات تخِرّ لها صُمّ الجبال.

ويجوز أن يتعلّق بما قبله على معنى: ثم تتفكّروا فتعلَموا ما بصاحبكم مِن جِنّة. وقد جُوِّز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاميّة على معنى: ثم تتفكّروا أيّ شيء به مِن آثار الجنون.

---

[1] س: تحت.

[٣٧٤و] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ / هو عذاب الآخرة، فإنّه عليه السلام مبعوث في نَسَم الساعة.[١]

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: أيَّ شيء سألتكم مِن أجرٍ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأسًا، كقول مَن قال لمَن لم يعطِه شيئًا: "إن أعطيتني شيئًا فخذه". وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة، أريدَ بها ما سألهم بقوله تعالى: ﴿مَآ أَسْـَٔلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان، ٥٧/٢٥]، وقولِه تعالى: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى، ٢٣/٤٢]، واتّخاذُ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى، وقُرباه عليه السلام قُرباهم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مُطّلِع، يعلم صِدقي وخلوصَ نيّتي. وقُرئ: "إِنْ أَجْرِي" بسكون "الياء".[٢]

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يُلقيه ويُنزله على مَن يجتبيه مِن عباده، أو يرمي به الباطِلَ فيدمغه، أو يرمي به في أقطار الآفاق، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام، وإعلاءِ كلمة الحقّ.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ صفة محمولة على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها، أو بدل مِن المستكِنّ في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف. وقُرئ بالنصب[٣] صفةً لـ﴿رَبِّي﴾، أو مقدَّرًا بـ"أعني". وقُرئ بكسر "الغين"،[٤] وبالفتح[٥] كـ"صَبور" مبالغةِ "غائِب".

---

١ أخرج أبو نعيم في **حلية الأولياء**، ١٦١/٤، عن أبي جَبيرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بُعثت في نَسَم الساعة». وأخرجه البزّار في **مسنده**، ٣٨٩/٨ (٣٤٦٢)، بلفظ: «بُعثت في نَفْس الساعة». و"نَسَمُ الساعة" مِن "النسيم"، أوّلِ هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أوّل أشراط الساعة وضَعفِ مجيئها. **النهاية** لابن الأثير، «نسم».

٢ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. **النشر** لابن الجزري، ٣٥١/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٣.

٤ قرأ بها حمزة وشعبة عن عاصم. **النشر** لابن الجزري، ٢٢٦/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٣.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام والتوحيد، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زهَقَ الشرك بحيث لم يبقَ أثره أصلًا، مأخوذ مِن هلاك الحيّ، فإنّه إذا هلك لم يبقَ له إبداء ولا إعادة، فجُعل مثلًا في الهلاك بالمرّة، ومنه قول عُبيد:[1]

أقفَرَ مِن أهلِه عُبيدُ ... فليس يُبدِي ولا يُعيدُ[2]

وقيل: ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾ إبليس، أو الصنم، والمعنى: لا ينشئ خَلقًا ولا يُعيد، أو لا يبدئ خيرًا لِأهله ولا يُعيد. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بما بعدها.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الطريق الحقّ / ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنّ وبالَ [٣٧٤ظ]
ضلالي عليها؛ لأنّه بسببها؛ إذ هي الحاطّة بالذات، والأمّارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قُوبل الشرطيّة بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ لأنّ الاهتداء بهدايته وتوفيقه. وقُرئ: "رَبّيَ" بفتح "الياء".[3]

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يعلم قولَ كلّ مِن المهتدي والضالّ وفعلَه، وإن بالغ في إخفائهما.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند الموت، أو البعث، أو يومَ بدر. وعن ابن عبّاس

---

[1] هو عُبيد بن الأبرص بن عَوف بن جشم الأسدي، مِن مضر، أبو زياد (ت. نحو ٢٥ق هـ/٦٠٠م). شاعر مِن دُهاة الجاهليّة وحكمائها. وهو أحد أصحاب المُجمهَرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلّقات. عاصَر امرأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. وعمّر طويلًا حتى قتله النعمان بن المنذر، وقد وفَد عليه في يوم بؤسه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٥٩/١؛ والأعلام للزركلي، ١٨٨/٤.

[2] لعُبيد بن الأبرص في لسان العرب لابن منظور، «قفر». وفيه: «يُقال: "أقفَرَ فلان مِن أهله" إذا انفَرَد عنهم وبقي وحدَه».

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

رضي الله عنهما: «أنّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخرّبوها، فإذا دخلوا البيداء خُسف بهم».[١] وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا هائلًا.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون اللهَ عزّ وجلّ بهرَبٍ أو تَحصُّنٍ.

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مِن ظهر الأرض، أو مِن الموقف إلى النار، أو مِن صحراء بدر إلى قَليبها، أو مِن تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والجملة معطوفة على ﴿فَزِعُوا۟﴾. وقيل: على ﴿لَا فَوْتَ﴾، على معنى: إذ فزِعوا فلم يفوتوا وأُخِذوا، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَأَخْذٌ"[٢] بالعطف على محلّه، أي: فلا فوتَ هنا، وهناك أخذٌ.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۢ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد مرّ ذكره في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾.[٣]

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ "التناوُش": التناول السَّهل، أي: ومِن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولًا سهلًا ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فإنّه في حيّز التكليف، وهم منه بمَعزِل بعيد، وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبَعُد بحالِ مَن يريد أن يتناول الشيء مِن غَلوةٍ تناولَه[٤] مِن ذراعٍ في الاستحالة. وقُرئ بـ"الهمز"[٥] على قلب "الواو" لضمّها، وهو مِن "نَأَشْتُ الشيءَ" / إذا طلبتَه، [٣٧٥و] وعن أبي عمرو: "التَّناؤُش" -بـ"الهمز"- التناول مِن بُعد، مِن قولهم: "نَأَشْتُ"

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٣. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء مِن الأرض يُخسف بأوّلهم وآخِرهم»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأوّلهم وآخِرهم وفيهم أسواقهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «يُخسف بأوّلهم وآخِرهم، ثمّ يبعثون على نيّاتهم». صحيح البخاري، ٦٥/٣ (٢١١٨)؛ صحيح مسلم، ٢٢١٠/٤ (٢٨٨٤).

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

٣ سبأ، ٤٦/٣٤.

٤ قوله: "غَلْوة" هي مقدار رَمية سَهم، وهو هنا مثال للبُعد، كما أنّ الذراع مثال للقُرب بدون قصد للتخصيص. و"تَناولَه" مصدر مضاف للمفعول أو للفاعل. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢١١/٧.

٥ أي: "التَّنَاؤُش". قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

إذا أبطأتَ وتأخَّرتَ، ومنه قول مَن قال:

تمنّى نَئيشًا أن يكون أطاعني وقد حدثَت بعد الأمرِ أمورُ[1]

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إيّاه، ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ ذلك، في أوان التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويَرجُمون بالظنّ، ويتكلّمون بما لم يظهر لهم في حقّ الرسول عليه السلام مِن المَطاعن، أو في العذاب المذكور مِن بَتِّ القول بنفيه، ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مِن جهة بعيدة مِن حاله عليه السلام، حيث ينسبونه عليه السلام إلى الشِّعر والسِّحر والكذب، وأنّ أبعدَ شيء ممّا جاء به الشِّعرُ والسحرُ، وأبعدَ شيء مِن عادته المعروفة فيما بين الداني والقاصي الكذبُ، ولعلّه تمثيل لحالهم في ذلك بحال مَن يرمي شيئًا لا يراه مِن مكان بعيد لا مجال للوهم في لُحوقه.

وقُرئ: "وَيُقْذَفُونَ"[2] على أنّ الشيطان يُلقي إليهم ويُلقّنهم ذلك، وهو معطوف على ﴿قَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ على حكاية الحال الماضية، أو على ﴿قَالُوٓا۟﴾،[3] فيكون تمثيلًا لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيّعوه مِن الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن نفع الإيمان والنجاة مِن النار. وقُرئ بإشمام الضمّ للحاء.[4] ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم مِن كفرة الأمم الدارجة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: مُوقِعٍ في الرِّيبة، أو ذي رِيبةٍ.

---

١ لنَهشل بن حَرّي في لسان العرب لابن منظور، «نأش». وفيه: «أي: تمنّى في الأخير وبعدَ الفَوت أن لو أطاعني، وقد حدثت أمور لا يُستدرك بها ما فات، أي: أطاعني في وقت لا تنفعه فيه الطاعة».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي حيوة ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها ابن عامر والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

والأوّل منقول ممَّن يصحّ أن يكون مُريبًا مِن الأعيان إلى المعنى، والثاني مِن صاحب الشكّ إلى الشكّ، كما يقال: "شِعرٌ شاعِر"، والله تعالى[1] أعلم.

[٣٧٥ظ] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسول ولا نبيٌّ إلّا كان له يومَ القيامة رفيقًا ومصافحًا».[2]

---

[1] م - تعالى.

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٦٩/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٨٦/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.